كلام الشهود

ثلاثية التحرير

عزالدين شكري فشير

I

ميدان التحرير

كنت على وشك الانتهاء من الرواية الجديدة، لكنني لست مرتاحاً لها بعد. أعيد قراءتها ثم أعدّل فيها شيئاً فتتغير، فأضطر لتغيير أجزاء أخرى كي تتماشى مع هذه التغييرات. بدأت أقلق. قال لي صديقي الناقد إن عليّ أن أتوقف عن كل هذه التغييرات وأسلمها للناشر، كما هي كي لا أشوهها. أفكر فيما يقوله وأنظر للنص، وأسأل نفسي ما إذا كان قد تشوّه بالفعل. تراودني رغبة ـ أخشى إعلانها لنفسي ـ في أن ألقي بالنص كله في سلة المهملات، القابعة في طرف الشاشة، وكأنها تدعوني.

اليوم الثلاثاء، وليس عليّ الذهاب للجامعة، لذا كان في ذهني أن أقضي اليوم في العمل على النص، لكن المظاهرات التي بدأت هذا الصباح جاءت أكبر من المتوقع بكثير. كان المنظِمون بالأمس يمزحون في رسائلهم على الفيسبوك؛ قال واحد منهم

عزالدين شكري فشير، روائي مصري.

إنهم يريدونها مثل مظاهرات تونس، فردَّ عليه آخر بأن التونسيين لم يحددوا للنظام موعداً كي يسقطوه، وعلق ثالث بشيء مكرر عن سلبية الشعب، فذكَّرهم الأول بأن الاستسلام ليس حلاً، ودعاهم في نغمة درامية للمشاركة في المظاهرة، حتى لو لم يأت غيرهم.

مجموعة ٦ أبريل، وخالد سعيد، و٩ مارس، وتواريخ أخرى، كلها تؤرخ للفشل المزمن في تعبئة الناس، وفي تغيير، أو إصلاح النظام. تواريخ تضاف كل عام لعشرات سبقتها، تتراكم فوق بعضها في طبقات من الإحباط الليّن، الذي يزداد صلابة مع الأيام، ليصبح كالصخر. قرأت دعوات التظاهر وابتسمت؛ فأنا لا أشارك في أي من هذا، منذ مظاهرات اللجنة الوطنية للدفاع عن حقوق الطلبة في الثمانينات، ومنذ الفشل القديم والإدراك العميق بعبث كل هذا. أعلم ألا فائدة: نخبة مفككة، وشعب مستسلم، ونظام توحشت أجهزته القمعية، وعالم غير مهتم: هذه هي رباعية الاستبداد الشرقي.

لكن مظاهرات اليوم فاجأت الجميع، وأولهم المنظمين. ظللت قابعاً في البيت أحاول العمل على الرواية. أشاهد من وقت لآخر التغطية الإعلامية لما يحدث وأبتسم. لا بأس، مشاهد قوية، لكني أعلم أن الكاميرات تخدع. أنا ابن البلد؛ حين أرى زاوية الكاميرا المسلّطة على «الجموع» في الشوارع والميادين، أستطيع تمييز حجمها الحقيقي. أتصل بأصدقاء يسكنون في المهندسين وميدان التحرير وحوله. ويبعث لي طلبتي، المشاركون في التظاهرات، برسائل تبقيني على علم بما يجري.

مظاهرات كبيرة وكثيرة، لا شك. مشاهد مؤثرة عن مواجهة خراطيم المياه، والقفز فوق سيارات الأمن، والتقاط القنابل المسيّلة للدموع و«إعادتها» لمصدرها. إفادات عن قمع وضرب وعنف وقسوة لا تفاجئ أحداً.

المتظاهرون يتفنون في الكرّ والفرّ ومراوغة قوات الأمن الغشيمة. هذه ولا شك نقلة نوعية، لكنها ليست تونس، هذه ليست مظاهرات تزعزع النظام. سيضاف يوم ٢٥ يناير إلى قائمة التواريخ التي نحفظها وننساها لكثرتها، ربما يكون من أنجح هذه التواريخ، لكنه واحد منها في نهاية الأمر، لا أكثر ولا أقل.

لم أعمل جيداً على نص الرواية رغم ذلك، فانتباهي مُشتّت بين التلفزيون، والرسائل والتليفونات والتفكير. هذا هو عيب المظاهرات، تقلب علينا المواجع وتثير فينا ـ رغم كل شيء ــ الأمل. رغم اليقين المستقر بألا فائدة، رغم التاريخ والعلوم الاجتماعية، تثير فينا بصيصاً من الأمل، حتى لو كان خافتاً فإنه يحرك الدواخل، ويثير بعض الاضطراب.

وأنا لا أستطيع الكتابة وأنا مضطرب. توقفتُ عن المحاولة عند المغرب، ثم جاءني اتصال من القناة الفضائية يطلب مشاركتي في نشرة الأخبار الرئيسة، للتعليق حول تسريبات «ويكيليكس» عن المفاوضات الفلسطينية الإسرائيلية. تنفست الصعداء إذ جاءتني حجة تعفيني من لوم النفس على عدم الكتابة. وافقت.

كانت الساعة تقارب العاشرة مساء حين وصلتُ إلى ميدان التحرير، حيث تقع مكاتب القناة الفضائية. هناك بقايا تشي بالمواجهات التي دارت طيلة اليوم، وبعض المتظاهرين المنتشرين دون نظام في الميدان وحوله، واختفاء لقوات الأمن. المكان يشبه شوارع القاهرة في ثاني وثالث أيام العيد؛ كثير من الناس، بعض الفوضى، إضطراب مروري دون زحام حقيقي، وإحساس بسيط بخطر عشوائي محتمل.

توقف التاكسي أمام مبنى القناة، وخرجت وأنا أجد بعض الغرابة في الموقف. خرجت اليوم مظاهرات ربما تكون الأكبر في القاهرة منذ ربع قرن، وأنا ذاهب للقناة الفضائية ـ هنا، في القاهرة ـ كي أعلق على تسريبات المفاوضات الفلسطينية! قلت لا بأس، وذهبت، وعلّقت، وخرجت، وعدت للبيت.

• • •

قال صديقي الأمني إن ما يحدث خطة مُعدّة من قبل الإخوان المسلمين وحلفائهم الإقليميين والدوليين، وإن الولايات المتحدة شريك ضمني في هذه الخطة. ذكّرني بحريق القاهرة في يناير ١٩٥٢، وسلسلة الأحداث التي بدأت في ٢٥ يناير من ذاك العام حتى «الحركة المباركة»، التي قام بها «الضباط الأحرار» في يوليو، ومهدت لاستيلائهم على السلطة بعدها بعامين.

آنذاك كان الإخوان المسلمون وراء الأحداث، باتفاق صريح مع الأمريكان. انقلب عبدالناصر بعد ذلك على الإخوان، ولكن تلك قصة أخرى. قال صديقي الأمني إنه منزعج مما يحدث، ولفت نظري إلى عدد من المؤشرات: استهداف أقسام الشرطة، والمحاكم والسجون، التي تضم رموز الحركات الإسلامية، هروب عناصر حماس، وحزب الله، الحرائق المتعمدة، استهداف رموز الدولة والحديث عن حصار التليفزيون والاستيلاء عليه. «لم يبق غير إذاعة البيان رقم ١»، قال.

اعترضت بشدة: ماذا عن القمع والشعور بالقهر؟ ماذا عن فشل النظام السياسي في التعامل مع مطالب التغيير، ومع المطالب الاجتماعية والاقتصادية للناس، ومع التغيير الاجتماعي، وظهور جيل جديد، بل وماذا عن إدارة مرافق الدولة؟ ماذا عن المصريين الذين يفرون من وطنهم بحثاً عن لقمة عيش، لم يعودوا يجدونها في بلدهم أُمّ الدنيا؟ ماذا عن الشباب الذي يغرق بالعشرات في عرض البحر، وهو يحاول التشبث بأهداب الأمل في مستقبل أفضل في أوربا تَعد ولا تفي؟ ماذا عن انحطاط العلم والثقافة والفنون في بلد كان منارة الشرق؟ ماذا عن وماذا عن، قائمة طويلة سردتها، وربما يكون الصديق الأمني خلالها قد وضعني على قائمة الانتظار، لكنه قال في النهاية إنه لا يختلف معي في أي من هذا، وإن المتظاهرين ولا ريب يعبرون عن مطالب ومظالم، لكن السؤال هو من المحرك الأول لهذه العملية.

لا أعرف الإجابة، وكرهت أرسطو مرة أخرى، وحديثه عن المحرك الأوّل. لا أعرف شيئاً عن المحرك الأوّل، وهناك دائماً من يفسد عليَّ فهمي لما أراه بالإشارة لمحرك أول لا يراه غيره. البحث عن المحرك الأوّل مهمة النبهاء، أما التركيز على هذا الذي يخرق عينك من فرط واقعيته فهو سذاجة. قد يكون المحرّك الأول هو الإخوان، أو الأمريكان، أو إيران، لا أعرف، لكني أعرف الكثير عن هذه المظالم وعن هؤلاء الناس.

اليوم الجمعة ٢٨ يناير، والساعة تقترب من الثالثة بعد الظهر، والوضع الآن يختلف تماماً عن يوم الثلاثاء. سألني أحد طلبتي أمس عما سيحدث في «جمعة الغضب»، فقلت إنه سيكون يوماً فارقاً: إما أن تتلاقى النيران الصغيرة التي اندلعت في ٢٥ يناير، وتلتحم ببعضها لتُكوّن ناراً كبرى، أو تستمر كما بدأت: حرائق

صغيرة تنطفئ تدريجياً في مكانها، مثل سوابقها.

تصورتُ أن يكون الجمعة بداية اختبار ذلك، لكن الأحداث كانت تجري بوتيرة أسرع. لم يعد الأمر قاصراً على الفيسبوك وأتباعه، ولا مجموعات التليفونات المحمولة، والإس إم إس. أغلقت السطات الأمنية كل هذا، وقطعت الاتصالات كلها تقريباً، ورغم ذلك تدفقت الجموع في الشوارع. وأصبح من الواضح أن النيران الصغيرة قد تلاقت، وأن مصر كلها الآن تخرج للشارع. هذه هي العاصفة التي طالما حلمنا بها. هذه هي.

التلفزيون يبث صوراً لا تُصدق. أسماء وأنا ملتصقان بالتليفزيون نسأل: هل هؤلاء مصريون فعلاً؟ هل هؤلاء هم نحن، وأصدقاؤنا وجيراننا وأقرباؤنا وزملاؤنا بالجامعة؟ هل هؤلاء هم العدميون السلبيون الساكنون المستسلمون الذين لا فائدة منهم؟ جموع من الشعب، ذلك الشعب الذي تيقّنا من موته مرات، تتراجع أمام الضرب والعصي الكهربية وقنابل الدخان. تتراجع وتتراجع، ثم تبطئ تراجعها، ثم تتوقف. تتوقف قوات الأمن عن التقدم. يقف الجانبان لوهلة وكأنهما يفكران في الخطوة التالية. ثم يخطو الناس الخطوة الأولى، باتجاه قوات الأمن.

لو كان محمود درويش حياً لهتف: «الله أكبر، هذه آياتنا فاقرأ». يخطو الناس الخطوة الأولى، انقلبت المعادلة فجأة وصار المطارَدُ مُطارِداً. الناس، العزل، المعرضون للأذى، يتقدمون باتجاه قوات الأمن المدججة بالحماية، ووسائل العدوان. وقوات الأمن تخطو بدورها الخطوة الأولى، للخلف. الناس تسرع، وقوات الأمن تحث الخطى متراجعة، ثم تجري، والناس تطاردها فتفر أكثر وهي تلهث، وتتبعثر، ثم تذهب سدى.

هكذا، في هذه اللحظة تحديداً، رأيت سقوط النظام.

• • •

في صباح السبت ٢٩ يناير قررت النزول للميدان. أسماء على وشك الولادة، ولا أحد معها سواي، ولا اتصالات، وهناك حظر للتجول. قلت لا تقلقي، سوف أعود

بسرعة. لا سيارات بالطريق. القاهرة تبدو أجمل هكذا. عبرتُ كوبري مايو، الذي يفصل بيتي عن مبنى التليفزيون. مررت أمام وزارة الخارجية المدججة بسيارات الجيش، ثم أمام التليفزيون. مدرعات الجيش القليلة تبدو غير واثقة من نفسها في انتشارها الاستعراضي أمام المبنى. المتظاهرون يقفون أمامها وحولها وأمام أبواب المبنى، والضباط والجنود يحاولون يائسين إبعادهم نحو خط وهمي يمر في منتصف الشارع أمام المبنى.

المتظاهرون يهتفون بصوت عال: «الجيش والشعب إيد واحدة»، ثم يتمتم بعضهم بصوت منخفض «والله انتوا اللي حاتضربونا بالنار». المدرعات وجنودها يشرعون بنادقهم الآلية فعلاً باتجاه المتظاهرين، ووجوههم تخلو من أي تعبير. أشارك المتظاهرين القلق. قال الضباط إن حظر التجول سيطبق في الرابعة، ويريدون من المتظاهرين الانصراف. ماذا سيحدث في الرابعة حين لا ينصرف الناس؟

سرت باتجاه ميدان التحرير وأنا أحصي سيارات الأمن المقلوبة والمحروقة. وضع المتظاهرون بعضها في عرض كوبري أكتوبر لسد منزله عند التحرير. هذه هي السيارة التي شاهدتها أمس وهم يقلبونها على شاشة التليفزيون. احترقت تماماً الآن. شعارات التنديد بمبارك وحكمه ونظامه تملأ المكان، وخاصة على الدبابات، وسيارات الجيش. على إحدى سيارات الأمن المحترقة كتب أحدهم بطباشير أبيض: «هذه نهاية كل ظالم». مشيتُ حتى وصلت إلى مقر الحزب الوطني المحترق. ما زال الدخان يتصاعد من المبنى، وقد احترقت أدواره تماماً هو والمبنى الأكبر الملاصق له، والذي يضم المجلس الأعلى للصحافة، وبعض المؤسسات التافهة المشابهة.

كان المبنى قبل ذلك مقراً للاتحاد الاشتراكي العربي، وقبلها مقراً لـ«هيئة التحرير» – لا بد وأن فيه شيئاً يؤهله للاستبداد. تذكرت رئيس تحرير صحيفة حكومية وهو يهاجم مذيعة القناة الفضائية بالأمس، لأنها تدّعي أن الحزب الوطني يحترق، ويؤكد في شماتة أن ما يحترق هو يافطة أمام المبنى.

نظرت نحو المبنى مرة أخرى: فوق سطحه يافطة دعاية الحزب الوطني سليمة لم تمس: عليها صورة ملونة لخمسة أطفال مُشرقي الوجوه وتحتها عبارة «عشان تطمئن

على مستقبل أولادك». بدت اليافطة الآن غامضة المقصد؛ ما الذي سيطمئني، الحزب أم إحراقه؟

فناء المبنى يبدو كساحة قتال حقيقية. عشرات السيارات لم يبق منها واحدة، وكأن الناتو قد قصفها واحدة واحدة. هذا ماكان فناءً محظوراً لا يدخله إلا أصحاب النفوذ، صار الآن هياكل حديدية سوداء يخرج منها دخان وصوت كأنه تسرب للبخار. رجل طاعن في السن بملابس ممزقة يسعى في الفناء، وهو يهتف برتابة ضد «الحرامية». ناس ترفع تليفوناتها وتلتقط صوراً للفناء المسحوق. تركت الفناء والمبنى وتوجهت إلى ميدان التحرير. اختفت معالم الدولة بالكامل، ما عدا بعض سيارات الجيش التي يقف عليها المتظاهرون، ويلتقطون الصور، ولم يعد في الشارع سوى الشعب.

أسير في الميدان وأنا أسأل نفسي من هؤلاء الناس ومن أين أتوا وأين كانوا طيلة هذه السنين. وأشعر أني تجاوزت عالم الواقع. أمرُّ بين وجوه وأجسام، جموع وأفراد، مجموعات تتناقش وأخرى ترقص وأخرى تنام، أو تجلس، أو تهتف، أو تأكل، أو تفترش الأرض، أو تكتب لوحات، والكل يريد من مبارك الرحيل، من النظام الرحيل: «الشعب يريد إسقاط النظام».

مر أمامي رجل طاعن في السن، وهو يحمل ورقة مكتوب عليها «مقاتل من حرب أكتوبر يريد إسقاط النظام»، ومعها شهادة الخدمة العسكرية. يدور في الميدان الفسيح دون أن ينبس بكلمة. رجل آخر جالس على حافة الرصيف وأمامه ورقة تحكي عن التعذيب الذي تعرض له في أمن الدولة، وامرأة تقول شيئاً عن أخيها الذي قتله زبانية النظام، ورابع يحمل ورقة عن المهانة، وخامس يندد بالرئيس، ثم شيء عن الجوع، وعن الفساد، عن الحرية، عن الكرامة، عن العجز، عن الفشل، عن المرتبات والأسعار، عن العدالة، عن الظلم، الكثير عن الظلم، عن التعليم والأبناء، عن التوريث، عن الحزب الوطني، عن هذا وذاك، وعن كل شيء. كأنه يوم القيامة. كأن الشعب بُعث من مماته ويرفع مظالمه لله.

جلست في الميدان أرقب الناس. من هؤلاء؟ يطلبون حاجاتهم بعزة نفس،

وبتصميم لم أره في مصر من قبل، بل وبروح دعابة كنت أظنها قد خمدت تحت طبقات المعاناة والقهر. ينظمون أنفسهم بأنفسهم، ويحترمون بعضهم بعضاً، ويتواصلون رغم اختلاف انتماءاتهم.

عند مدخل الميدان من ناحية كوبري قصر النيل تُقابل العائلات الموسرة. رجال وسيدات وأبناء وكثير من البنات والسيدات المعتنى بهن جيداً، ثم تُقابل مجموعات متفرقة من الشباب، ونشطاء الانترنت على اليسار، في وسط الساحة، ثم صحفيين وكتاباً بجانب مسجد عمر مكرم، ثم تجمهراً لليسار، ثم المتدينين عند بداية شارع التحرير، ثم جموعاً غير محددة من الطبقات الوسطى والفقيرة حتى المتحف، وهكذا.

مصر كلها هنا، ممثلة، وبين الحضور تناغم لم أعهده. كيف يمكن أن يكون هؤلاء هم هم الذين قتلوا بعضهم على رغيف الخبز في طوابيره الدامية؟ الذين يتدافعون على سلالم الأتوبيسات كي يأخذوا أماكن بعضهم؟ الذين يتحرشون بالفتيات في وسط البلد في العيد على مرأى ومسمع من الجميع؟ الذين شاهدوا المخبرين ينهالون بالضرب على خالد سعيد، ويعيدونه إليهم قتيلاً، ولم يحاولوا الاعتراض؟ الذين يشاركون في تزوير إرادتهم في كل انتخابات منذ عقود طويلة؟

ليست هذه مصر التي عرفتها طيلة أربعين عاماً ونيف. تلك مصر أخرى، وهذا شعب آخر.

نظرت في الوجوه، وتحدثت مع الناس، وفهمت، ربما من اللحظات الأولى، أن النظام قد سقط. الشعب الذي أعرفه، الذي يريد الحياة الهادئة، ويؤثر السلامة على المطالبة بالحقوق، الذي يفضل النوم مظلوماً، الذي يدعو للصبر على الأذى، وللصبر على جار السوء حتى يرحل من تلقاء نفسه، وللصبر على الشدائد حتى تمر من تلقاء نفسها، وللانحناء للعاصفة، ولمناداة الكلب بالسيد إن احتجته، ولربط الحمار محل ما يطلب صاحبه، ولطاعة ولي الأمر واحترام الكبير، وتقديس الحاكم، ولوضع الرقبة مع رقاب الناس، وعدم الخروج على الجماعة.

هذا الشعب المتشكك في الدعوات الكبرى، وفي السياسيين، وبمن يُنصّبون

أنفسهم دعاة إصلاح، بل وفي فكرة الإصلاح نفسها، هذا الشعب لا يثور على حكامه أبداً. وما دام قد وصل به الأمر لما أراه بعيني في الميدان، فقد انتهى الأمر. لقد ثار الشعب على حاكمه، ولن يعود حتى يرحل. لقد خرج الشعب المصري من سباته.

عدت إلى البيت. سألتني أسماء عما رأيت. قلت لها إن النظام قد انتهت أيامه، وأن السؤال هو متى يفهم القائمون على النظام ذلك وبأي ثمن. سألتني عن الجيش فقلت إني قلق. سألتني عن المتظاهرين فقصصت عليها مارأيت. نظرت إليّ بشك ولم تزد.

• • •

من لا يعرف طعم اليأس لن يفهم كيف كنا نتمزق بين الخوف والرجاء. اليأس هو أن تدرك تمام الإدراك أن ليس بوسعك فعل شيء: ترى الحق حقاً، ولا تستطيع اتباعه، وترى حياتك كلها مدفوعة في الاتجاه الخاطئ، وأنت تعلم، وأنت تفهم، وأنت تعرف أنه كان يمكن لها أن تسير في الاتجاه الصحيح، لكنك لا تستطيع أن تفعل شيئاً. تعرف الصواب وتسير مع الباقين في الخطأ، وتعرف ألا فائدة من الكلام ومن الكتابة ومن الخطابة ومن النضال ومن العنف ومن اللاعنف: لا أمل.

لا شيء سيحرك هذا الصخر الرابض فوقنا. اليأس أن تمر من أمام مبنى «أمن الدولة» الرهيب، وتحاول ألا تراه. وحين تراه تفكر في أن هذا المبنى يحوي سجوناً يُعذب فيها الناس – ربما في هذه اللحظة – فتطرد هذا الخاطر من ذهنك.

اليأس أن يأتيك طلبتك يشتكون من منع الأمن لهم من التعاون مع طلبة الجامعات الأخرى، فتقول لهم إن هذه سُنّة الأمن في بلادنا، وتنصحهم بالعثور على طريق يلتف حول منع الأمن ولا يواجهه، فما الفائدة من ضرب رأسك في الجدار.

اليأس أن تعيش حياتك تبحث عن طرق التفافية. اليأس أن تذعن وتظل سائراً بين الجدران، يقل الهواء، وتختفي الشمس، ويزداد التلوث، وأنت تتعود، فلا يفاجئك شيء، ولا يفرحك شيء، ولا يغضبك شيء.

تتغير ملامح وجهك مع الوقت، فتذهب لمعة العين، تلك التي تصيب البلهاء والمراهقين، والذين يعيشون في الخارج. تنكمش عضلات وجهك وتنحصر ملامحك في عدد أقل من التعبيرات، معظمها في اتجاه السكون. تخمد. تقل عدد الكلمات التي تحتاج لاستخدامها، ويكثر لجوءك لهزة صغيرة من الكتف، أو لنصف قلبة للشفاه. اليائسون يفهمون بعضهم دون كلام.

وفجأة تجد الشعب الميت، وقد دبّت فيه الحياة، والحياة مرض مُعد. يراودك الأمل، رغماً عنك. في البداية تقول لا، لا يمكن، ثم تتساءل، ثم ينتهي الأمر بك، وقد راودك الأمل رغماً عنك. ولكنك تعلم قسوة الواقع، تعرف قوى الظلام كلها، وتعرف قوتها وتشعبها واستعدادها للذهاب إلى أبعد مدى لحماية سطوتها، وتعرف الضعف الانساني جيداً، فلم لا تهمد؟

لكن الأمل عنيد، ويعود من حيث لا تحتسب. تجيئك الأخبار وحدها: أخبار عن قوى الظلام وتحركاتها، عن الأطراف الدولية وترددها، عن الشباب وتبعثره، والقوى السياسية وحساباتها، وتحسب هذه الأشياء كلها وترى: نعم هناك فرصة للحرية، لكن هناك فرصاً عديدة للفشل. تحاول، بهدوء ودون ضجة، توصيل بعض الخيوط ببعضها كي تكشف المخاطر، وتفضح المؤامرات، وتلفت النظر للفخاخ المنصوبة، لكنك تعلم أن هذا لا يكفي. الأمل واليأس يتصارعان كداوود وجالوت، وأنت معلق بأذيالهما يرفعانك في السماء، ويهويان بك في الحضيض، مرات في اليوم الواحد. تعلم أن داوود انتصر في المرة الماضية، هكذا قيل، لكنك تعلم أيضاً أن جالوت تعلم الدرس. على كل حال أنت لم تر في حياتك سوى انتصارات جالوت.

• • •

حين رأيت فادي في الميدان لم أعرفه في البداية: وجهه يبدو أصغر، أكثر سمرة وعيناه زائغتان. متعب، واضح عليه الارهاق، أو شيء أكثر من ذلك. لم نكن قد تقابلنا في الميدان من قبل، لكننا تحدثنا، وكأننا كنا سوياً منذ لحظات. هذه هي القاعدة. لا أحد يفاجأ برؤية أحد هنا: وكأن الافتراض أن مكانك هنا. سألته كيف

كانت الليلة فقال – وعيناه لا تستقران – إنها كانت عصيبة، وشرح لي كيف تعرضوا للهجوم من ناحية ميدان عبد المنعم رياض: البلطجية والخيل والجمال.

قال إن المشكلة هي عدم معرفة العدو، فالكل «مدني»: «تكون واقفاً هكذا ثم يهاجمك شخص ما على حين غرّة. لا نريد المبادرة بالهجوم وإلا ضربنا بعضنا، ثم نحن نريد إبقاءها سلمية». المواجهات استمرت طيلة الليل، والجيش وقف دون حراك، قال. شرح لي شاب آخر كيف تراجع المتظاهرون بسرعة حين بدأ الهجوم، ثم أعادوا تنظيم صفوفهم شيئاً فشيئاً. قال لي ثالث: إن رجال النظام الذين دبروا هذه الحملة أغبياء «لأنهم علمونا تكتيكات لم نكن نعرف عنها شيئاً».

شرح لي أن كرات النار، وزجاجات المولوتوف، كانت تلقى عليهم من أسطح العمارات في الميدان، وبعد الفوضى والانسحاب، فكّر أحد الشباب في الصعود على سطح عمارة «وتطهيرها» ففعلوا ذلك، وبعدها تحولوا للعمارة التالية وهكذا، حتى طهروا الميدان من البلطجية قرب الفجر.

ثم فكر آخر في الصعود على كوبري أكتوبر حيث مصدر النيران، واستمرت المواجهة هناك حتى الرابعة صباحاً. ومن ساعتها وهم يسيطرون على هذه المواقع الاستراتيجية ويمنعون عودة البلطجية. أخذني بعض الشباب لرؤية أكوام الحجارة التي أتوا بها لا أدري من أين ـ خلعوها من الرصيف وأحواض الزرع على ما أذكر ـ ووضعوها بجوار مداخل ومخارج الميدان. كانت جموع البلطجية ما تزال تحوم، وأستطيع رؤيتها في شوارع وسط البلد، وهناك مناوشات على التخوم، لكن الجيش الآن يقف حائلاً بينهم وبين المتظاهرين. ثمانية قتلى هذه الليلة.

اصطحبني «طبيب» شاب – لا يتناسب معطفه الأبيض مع بقية ملابسه ولا مع المكان – لزيارة «المستشفى الميداني»، وهو زقاق صغير بين عمارتين يستخدم للصلاة أيام الجمعة. جرحى يفترشون الأرض على جانبي الزقاق، أمام أبواب المحلات المغلقة، وبينهم ملاءات معلقة كيفما اتفق، وقد عُلّقت على أبواب المحلات المغلقة أوراق متباينة الحجم كتب عليها بسرعة «قسم العيون»، «قسم الجراحة العامة» وهكذا.

في الوسط كومة من الأدوية. قال الطبيب إنه وزملاءه المتطوعين ظلوا يعملون طيلة الليل. «لم يكن من الممكن نقل الجرحى في معظم الأحيان، فليس لدينا نقالات، ولا يوجد ناس لنقل الجرحى. كنا نعمل وسط صفوف المتظاهرين: يسقط أحدهم فنجري إليه ونعالجه على الأرض حيث سقط». قال لي الطبيب ـ وأراني ـ أنه يحمل في جيبه حقنة ومخدر ومطهر وخيط الجراحة وشيء آخر لم أفهمه. جيوب معطفه هي مكان الأدوات، وأرض الميدان غرفة الجراحة.

حكى لي عن متظاهرين أصيبوا في رؤوسهم، كان يضمدهم وهم يستعجلونه لكي يعودوا مرة أخرى للدفاع عن الميدان ضد البلطجية. قال الطبيب باقتضاب شيئاً عن إصابات الرصاص، والعيون، وشيئاً عن القتلى، ثم صمت. قال فادي إنهم كانوا شباباً زي الورد وتقلصت ملامح وجهه أكثر ولم يزد.

كانت معظم الفتيات والسيدات قد رحلن، وحل محلهن رجال من الإخوان المسلمين الذين أصبحوا يشكلون قرابة نصف الموجودين في الميدان. قال لي البعض إنهم حضروا خصيصاً للتصدي للبلطجية وأبلوا بلاءً حسناً، «فهم مدربون على هذه الأمور». أبدى بعض الشباب القلق من هذا المنحى، لكن الجميع أكد أنه باق: «سنموت هنا لو اقتضى الأمر».

أعلم أنهم سيموتون هنا لو اقتضى الأمر، لكني لا أريد لهم الموت. كنت قد مررت بالأمس على مظاهرة «تأييد الرئيس» أمام مبنى التليفزيون ـ قبل أن تأتي الجمال والخيول، وشعرت بالخطر. كان واضحاً نوعية «المؤيدين»: رأيتهم مراراً من قبل، في مواسم الانتخابات وكافة مناسبات التعبئة المدفوعة الثمن، وأمام الجمعيات التعاونية في السبعينيات حين كان للأرز والسكر والدجاج مراسم استقبال خاصة.

اتصلت بصديقي الأمني، ووجدته محبطاً من هجوم الخيالة والجمال. قال لي إن هناك من يحاول تخريب الجهد الجاري لإنقاذ الموقف والاتفاق على إصلاحات، لأن هذه الإصلاحات ستضر بهم وبمشروعاتهم المستقبلية. هؤلاء هم منظمو حملة الجمال. اتفقنا أن نحاول، كل من ناحيته، الوصول لاتفاق بين الراغبين في إجراء إصلاحات جذرية داخل النظام، وبين الشباب في الميدان. وعدت للميدان بعد

الاتصال ببعض الأصدقاء.

قضيت اليومين التاليين في مفاوضات مع «الشباب»، أتنقل من خيمة إلى أخرى داخل الميدان، ومن بيت مجهول إلى بيت آخر في المنطقة المحيطة به. الخيمة لا تتسع لأكثر من شخصين، لكننا ننجح بطريقة ما في الانحشار داخلها. نحاول التفاوض همساً حتى لا يسمعنا من في الخيام الملاصقة. في كل مرة مجموعة مختلفة، والشباب مرهق ولا يدري بمن يثق ولا كيف يفاضل بين كل المقترحات التي يسمعها، ويخشى من الكل، حتى هؤلاء الذين يعرفهم من قبل، فمن يدري مَنْ يعمل لحساب مَنْ؟ ومن يدري من يريد أن يقفز على أكتاف مَنْ؟

في بيوت الغرباء، تدخل وتلقي التحية وتجد ثللاً من البشر الذين تعرف بعضهم، ولا تعرف معظمهم، ثم تنزوي مع شخص أو اثنين في غرفة، أو شرفة، وتتفاوضان. أصعب أنواع التفاوض تلك التي تتم مع عدد لانهائي من الأطراف: تجلس مع أربعة، وبعد ساعات من النقاش المجهد تتوصلوا لاتفاق، لكن هؤلاء الأربعة لا يمثلون سوى شظية من المتظاهرين، ومن ثم فعليك أن تسعى، وأن تجد الآخرين، وأن تعطي مقابل الاتفاق عقلك. يبدو الأمر عبثياً، لكنه ليس كذلك، فهذه الدوائر في نهاية الأمر متصلة، وبعد يومين من النقاشات الممتدة تبدأ بسماع صدى ما قلته منذ اليوم الأوّل: هكذا يولد الإجماع بين المجموعات المتناثرة.

منذ مجيء الجمال، والميدان محاط بلجان من الشباب، الذين يفحصون الداخل والخارج، بمرح واعتذار وتعاون من الجميع. أعتقد أني فُتشت في هذين اليومين، وما تلاهما، أكثر مما فُتشت في حياتي كلها. لكن الميدان أصبح الآن أرضاً محررة، وتفنن المتظاهرون في إبداء آرائهم، والتعبير عن أنفسهم، بالرسم والكتابة والغناء والرقص، وكل الأشكال الممكنة. ورغم تواجد الإخوان المسلمين الذي تزايد، فإن الطابع الاحتفالي كان سائداً.

قابلت «جيجي» وصديقة لها، لا أعرف اسمها، سألتاني عن مريم، ابنتي، وردة فعلها إزاء ما يحدث. قلت: لا تصدق أنها غادرت مصر، قبل أن يحدث كل هذا بعشرة أيام فقط، قالتا لي إنها ذاهبة للتظاهر أمام السفارة المصرية، وأنها غاضبة

لوجودها خارج مصر، وكانت تتمنى لو كانت، هنا، لتقيم معهن في التحرير.

اغتصبت ابتسامة، وأنا أحمد الله سراً، أنها سافرت، وضبطت نفسي مرة أخرى غير قادر على فهم موقفي. أنقذني «مكاوي» الذي ظهر، فجأة، قادماً من ناحية جامع عمر مكرم، تبادلنا التحية والتهنئة، ثم علقنا على ما يحدث في انبهار وشبه نشوة. قلت شيئاً عن التغيير الذي أصاب وسط البلد، مسرح كتاباته الأثير. سألني عن الرواية الجديدة، التي أكتبها، فأجبت أني نحيتها جانباً، منذ بداية الأحداث. قلت إني أدركت، فجأة، أن عالم الرواية سيختلف جذرياً بعد أحداث التحرير.

قلت له: «إذا راجعت الرواية العربية منذ «زينب» ستجد أن موضوعاتها السائدة هي التخلف والقهر السياسي، فعن ماذا سنكتب بعد التحرير؟». شاركني الرأي، وافترقنا. وفكرت أن عليّ أن أنهي الرواية قبل أن يفوت أوان نشرها، فمن سيقرأ رواية عن الاغتراب والعجز والمستحيل بعد الآن؟ لا بد أن أعود للنص سريعاً، لكن عليّ أولاً أن أتابع جهود التوصل إلى اتفاق مع هؤلاء الشباب.

لكن الاتفاق لم يتحقق، سواء لأن وتيرة الأحداث كانت أسرع مما يمكن اللحاق بها، أو لتعدد المنابر والوساطات والأطراف بما فيها ـ كما اعترف بذلك صديقي الأمني ـ من هم داخل النظام نفسه. لكني خلصت إلى أن النظام ـ أو من يسيطر عليه ـ لم يفهم بعد ما يحدث، لم يقتنع بعد بأن الشعب يريد فعلاً تغيير النظام، ومن ثم لا يزال يناور.

• • •

هذه جمعة الانتصار والاحتفال. مرّ أسبوع على «تنحي الرئيس» والآن تسقط الحكومة التي خلفها وراءه، ومن ثم قرر المتظاهرون ختام أعمالهم في الميدان باحتفال. حملت أسماء طفلنا الذي لم يتجاوز عمره عشرة أيام، وجاءت معي للمشاركة في الاحتفال بانتصار إرادة الشعب. هذه أول مرة تذهب إلى ميدان التحرير، وهي تريد أن ترى هذا الشعب المصري الجديد الذي لم تره إلا في التليفزيون. الشعب الذي لا يتحرش بالنساء، والذي يتضامن مع بعضه، اللطيف المجامل، ذي حس الفكاهة،

الواعي، والمصمم، والمتسمك بحقوقه، والقابل للتعدد والاختلاف. تريد أن ترى الشعب الذي تسمع عنه منذ ثلاثة أسابيع، ولم يتح لها حملها فرصة مقابلته.

مشينا على كوبري قصر النيل، ولاحظنا في استغراب أن السيارات عادت للسير فيه، وأصبحت الآن تزاحم آلاف البشر الذاهبين للميدان. عند مشارف الميدان زادت دهشتنا: الدبابات أفسحت الطريق للسيارات التي تريد الوصول إلى قلب الميدان، ولجان التفتيش تقلصت وتوقفت عن فحص الداخلين، والباعة الجائلون ينتشرون بكثافة، ووجوه غريبة لم أعهدها.

قلت انتظري، لعل داخل الميدان أمراً آخر. لكن الميدان كان مكتظاً بهؤلاء الناس أنفسهم، وبشباب حديث السن مشاكس، وعلى شفا العدوانية. حاولنا الدخول إلى قلب الميدان فلم نتمكن.

غريبة: في أيام المظاهرات المليونية كنت أستطيع المرور من قلب الساحة! الميدان ممتلئ بمخلفات طعام وأكياس. اختفى الشباب الذي يمر بأكياس جمع القمامة. اختفى المتظاهرون بلطفهم ونظامهم وموسيقاهم وفنونهم ولافتات الاحتجاج الذكية الدعابة، وحلَّ محلهم هؤلاء المتجهمون المتزاحمون الفظون القلب والسلوك. أين ذهب شباب التحرير؟ سألت. ابتسمت أسماء وقالت: «يبدو أنه مكتوب عليَّ ألا أرى غير هذا النوع من المصريين!»

II

كوبري مايو

قابلت «علي» عند نقطة المرور أسفل كوبري مايو. يحمل عصا خشبية تتناقض حوافها المشعثة مع مظهره المعتنى به بدقة. تبادلنا السلام وسرت بجواره باتجاه مطلع الكوبري من الناحية الشمالية. هذه أول ليلة لي في «اللجنة الشعبية». لست متأكداً بعد من جدوى ما نفعله، لكن مجرد التواجد في الشارع أثناء حظر التجوال الليلي أفضل من التحصن بالبيت. الخروج لملاقاة الخطر يعطيك ثقة ما، عكس انتظاره في

البيت.

كانت الليلة الأولى عصيبة. بدأ الأمر عند عودتي من الميدان قرابة الغروب: الشارع الرئيسي قفر لكن بعض «البلطجية» ظهروا وهم يحملون سيوفاً، وأدوات أخرى، لا أعرف كنهها. بدا التوتر واضحاً على البوابين وأصحاب المحلات، الذين كانوا يحاولون نقل أكبر قدر ممكن من البضائع في سياراتهم والرحيل قبل الغروب. الشرطة اختفت تماماً وكأنها لم تكن موجودة يوماً، حتى الجنود البائسين الذين «يحرسون» السفارات اختفوا. لا أثر لقوات الأمن.

لم تكن تلك هي المرة الأولى، فعقب مباراة مصر والجزائر حدث شيء مشابه، حيث انسحبت الشرطة من الحي ـ في ما عدا المائتي متر المحيطة بسفارة الجزائر ـ وتركت الشوارع للرعاع الغاضبين الذين عاثوا فيه فساداً طيلة الليل. يومها خرجت قبيل الفجر وكاد «المتظاهرون» أن يفتكوا بي حيث ظن أحدهم أني جزائري!

كانوا يسيرون في جماعات يبحثون عمن ينفثون فيه غضبهم أو شعورهم بالقوة، ورأت الشرطة في حكمتها الخافية علينا أن تمنحهم الحي بأكمله لتنفيث هذا الغضب. وقتها حطموا بعض واجهات المحلات وبعض السيارات والممتلكات العامة، وطاردوا بعض البنات وسبوا الجزائر وشعبها بأقذع ماتفتقت عنه قريحتهم المحدودة، ثم عادوا من حيث أتوا، وظهرت الشرطة المظفرة بعدها بيوم واستعادت السيطرة. لكن الأمور اليوم بدت أسوأ؛ لم يكن هناك سيوف في المرة السابقة. سلكت طريقاً جانبياً نحو المنزل ولم أقل لأسماء شيئاً عن الفرسان الغامضين المنتشرين في الشوارع، فهي في نهاية فترة الحمل ولا داعي للدراما.

لكن التليفزيون الوطني تكفل بإخبارها. مع حلول المساء، بدأت قنوات التليفزيون تذيع سيلاً من الأنباء التي تشير إلى حرق أقسام الشرطة، وخروج المحتجزين والمشبوهين من زنازينها، محملين بكافة أنواع السلاح، ثم جاءت أنباء السجون التي تهاوت أسوارها فجأة وفرّ سكانها بالمئات نحو المدن.

ثم بدأت استغاثات الجمهور الذي يتعرض لاعتداءات من بلطجية وخارجين على القانون؛ المرأة التي تستغيث بالجيش كي يأتي لحمايتها من بلطجية في شارعها،

الرجل الذي يحذر من قيام بلطجية بتحطيم وسرقة المحلات في الشارع المشهور، هؤلاء الذين فروا من المركز التجاري الذي اقتحمه المسلحون.

ثم الطامة الكبرى المرأة التي تبكي، وهي تروي كيف جاء البلطجية المسلحون في سيارات نصف نقل للمجمّع السكني الفاخر، وأمروا السكان بمكبرات الصوت أن يتركوا بيوتهم ويخرجوا فوراً، وإلا تعرضوا للقتل، ثم قاموا بنهب البيوت. قنوات وقنوات كلها تحمل هذه الاستغاثات: مصر كلها تستغيث بالجيش لصد هذا الهجوم الإجرامي، وماذا تستطيع دبابات الجيش أن تفعل في هذا الأمر؟

اتصلت بعدد من الأصدقاء لأعرف ما إذا كان الجيش قد انتشر في الحي، وجاءت الإجابة بالنفي. قمت لتحصين الشقة. فجأة رأيت البيت من منظور مختلف تماماً. اكتشفت أن بالبيت أبواباً أكثر من اللازم؛ ثلاثة أبواب يمكن الدخول منها، ونوافذ كثيرة متسعة. لماذا جعلت النوافذ بهذا الاتساع؟ وماذا دهاني كي أزيل حوائط الشرفة، وأستبدلها بأبواب من زجاج؟ فيم سينفعني هذا الزجاج الآن؟

وحين فتحت المطبخ على صالة الاستقبال، هل فكرت في أني لا أستطيع تأمين باب المطبخ المؤدي إلى السلم الخلفي؟ أعدت فرز محتويات الشقة، فوجدت بقايا مواسير الستائر الحديدية، وغطاء فرن قديم، وعصي وأشياء أخرى قد تكون مفيدة في عملية التحصين. قضيت الساعتين التاليتين أُحصّن الأبواب والنوافذ لمنع فتحها من الخارج اقتحاماً، أو على الأقل لجعل ذلك أكثر صعوبة.

ولكن فيم سيفيد ذلك، حقيقة؟ هل سيمنع مجرمين مسلحين من الدخول؟ لا أظن. اتصلت بيوسف الذي قرر في شهامة أن يبقى مع أمه ببيتها كي يدافع عنها، وتبادلنا بعض النصائح الدفاعية محدودة القيمة. قررت النوم في الصالة المجاورة لباب الشقة كي أكون في استقبال الغزاة المحتملين، وطلبت من أسماء النوم في الغرفة الداخلية، لكنها رفضت. قضينا الليل بين اليقظة والنوم. وعند الفجر بدأت أصوات إطلاق النار تتردد في الحي، يعقبها صراخ وهرولة. ظللت ساكناً أنتظر. لم يحدث شيء. بعدها بنصف ساعة جاء صوت من مكبر صوت مجهول يطلب من السكان إضاءة بيوتهم والنزول إلى الشارع. همست أسماء: لا بد وأن هؤلاء هم البلطجية.

طبعاً، لم نترك البيت ولبثنا ننتظر الهجوم الوشيك. لكنه لم يأت. وهكذا، حتى طلع النهار.

عند العصر تذكرت «علي» فاتصلت به لأستطلع الأحوال. قال لي إنه عاد لتوه من نوبة حراسة في الشوارع. تطوعت للانضمام، واتفقنا على اللقاء في المساء أسفل الكوبري. علي، الدبلوماسي المرموق، يحمل عصاه الخشبية، ويقودنا نحو مطلع الكوبري. تناقشنا قليلاً حول الأوضاع، وأبدينا قلقنا المشترك. علّق على الماسورة الحديدية التي أمسك بها ـ أنا الذي لم أتشاجر منذ كنت في الثانية عشرة ـ وعلقتُ على عصاه غير المقنعة. رأينا في الطريق بقية سكان الحي متجمعين في حلقات:

بعض البوابين، وأصحاب المحلات، وضعوا متاريس يدوية عند تقاطعات الطرق، سد السكان أبواب العمارات، ووقف العديد – رجالاً ونساءً – في نقاط تفتيش مرتجلة. نومئ لهم، ويومئون لنا، ونحن نمر وكأننا نعرف بعضنا.

لاحظ علي المفارقة: كيف سنعرف الطيب من الشرير، إن كنا كلنا نحمل نوع «الأسلحة» نفسها؟ وصلنا إلى مطلع الكوبري؛ حيا علي الموجودين ـ هؤلاء يعرفونه ـ وقدمني لهم، ثم اتخذنا مواقعنا. هذه نقطة تفتيش حقيقية: هناك حواجز مرور حقيقية أخذوها من نقطة المرور تحت الكوبري، ومجموعة كبيرة من الرجال تنسق في ما بينها.

مجموعة صغيرة رابضة في الأمام توقف السيارات الآتية ثم تفحصها من الداخل والخارج، وتتحقق من هويتها. وحين تنتهي تدعها تمر مشيرة لمن خلفها لتفتح لها الحاجز، ثم لمن خلفها لتزيح الحاجز الأخير. أحد الشباب يحمل بندقية صيد حقيقية، في حين يحمل الباقون عصياً ومواسير وما شابه. لم أر واحداً منهم من قبل، لكننا عملنا معاً بسرعة. توليت أمر الحاجز الأخير في حين تحرك من كان عليه لمهمة أخرى، ولساعات ظللنا نقوم بهذه المهمة.

تقع نقطة التفتيش عند الحد الفاصل بين حيّنا وبين إمبابة والعجوزة، على الضفة الأخرى للنيل، وكنا نسمع من مكاننا أصوات اللجان الأخرى. شرحوا لي ما حدث بالأمس، وكيف «قبضوا» على «متسللين» يحملون سلاحاً، وتبين أن السيارة ذات

مكبر الصوت تابعة للجيش، قرر قائدها مناشدة السكان إضاءة بيوتهم والنزول للدفاع عن الحي.

فجأة علت أصوات مضطربة من ناحية الحي المقابل، وسمعنا صوت عيار ناري. صاح أحدنا بنداء متفق عليه تناقلته نقاط التفتيش عبر الحي كي يتخذ الجميع وضع الاستعداد. قالوا لي إن هناك أنباء عن عربات للبلطجية تأتي في قوافل، تهاجم الأولى نقطة التفتيش بالسلاح وتدخل بقية السيارات في ظل هذا الهجوم. لهذا اتفقوا مع بقية النقاط على كلمة سر لرفع حالة الاستعداد في الحي كله، لصد موجات الهجوم المتوقعة.

وقفنا ننتظر الهجوم، لكنه لم يأت. بعد قليل جاءنا شاب قال إنه ضابط شرطة قرر التطوع للعمل معنا، مؤكداً أنه لا يقبل بما فعلته وزارة الداخلية، وأعطانا نصائح مفيدة لتنظيم نقطة التفتيش بشكل أفضل. أعطانا حاجز واق من الرصاص، وقف خلفه الشخص الوحيد الذي يحمل سلاحاً، وأعطاني حاجزاً متحركاً من الأشواك الصلبة المدببة، لمنع أية سيارة من اقتحام الموقع، ومضى لمساعدة بقية النقاط في الحي.

وقفنا نتعاون ونستمد الأمان من بعضنا. تحول بائع الخضروات إلى منسق عام للجنة، وتطوع أحد البوابين لعمل الشاي، ثم جاءت قريبة لأحد المشاركين، ومعها صديقات يقمن بالحراسة في نقطة قريبة، تحدثن قليلاً وعُدن لنقطتهن. جاء شخص ببعض الطعام. وطيلة الوقت يمتد النقاش بين الواقفين. الشعور بالغضب على قوات الأمن عارم: كيف يمكن للجهاز الذي ننفق عليه كي يحمينا أن يخذلنا هكذا؟ كيف يمكن أن تنهار قوى الأمن كلها، فجأة هكذا؟ هل هذا الانهيار مقصود؟ هل يعاقبوننا على مطالبتنا بسقوط النظام بأن يغرقونا في الفوضى كي نصرخ آسفين عودوا إلينا؟

وإلا فما علاقة ما حدث بالسجون؟ من الذي فتحها؟ ولم تتبع السجون وزارة الداخلية من أساسه؟ ولم لا توجد لدينا شرطة محلية مستقلة؟ لا بد من إعادة هيكلة وزارة الداخلية بالكامل، وأين ذهبت الأموال الطائلة التي يستقطعونها من

ميزانية الدولة للإنفاق على هذه الأجهزة؟

لا بد من الحساب، لابد من معرفة كيف حدث هذا الانهيار ومنعه من التكرار. الآن حصحص الحق، وعرف البواب، وبائع الخضار، أن السياسة تؤثر مباشرة على حياتهما. الكل يتحدث في السياسة، صغاراً وكباراً، أغنياءً وفقراء، من كل الأطياف ومن دون طيف. نحن سكان الحي الذين لا نعرف بعضنا، ولا نتبادل التحية، ونتفادى بعضنا ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، تحولنا فجأة إلى جماعة، وإلى جزء من جماعة أكبر. وقفنا عند الحاجز الذي أنشأناه، ننسق مع نظرائنا في النقاط الأخرى، ونحمي بيوتنا بأيدينا. فجأة أصبح الحي حينا بحق، والشارع شارعنا بحق، والأمر بيدنا، جميعاً. أنهيت نوبتي وتسلّم موقعي شخص آخر لا أعرفه، لكني حين عدت إلى المنزل كنت أشعر بأمان أكبر بكثير، وأنا أعلم أن الجماعة تقف عند الحاجز تدافع عن الحي.

• • •

قصص الرعب الآتية من مباني «أمن الدولة» لا تنتهي. لكن الحقيقة أن هذه القصص لا تفاجئني كثيراً: أعرف عنها شيئاً ما منذ كنت طالباً في الجامعة في الثمانينيات، وسمعت شهادات كثيرة عبر السنين من بعض ضحاياها وبعض من اقترفوا جرائمها. أتذكر هذه الشهادات وأنا أسأل نفسي لِمَ يحكي لي الناس هذه الأشياء؟ لِمَ يحكي لي شخص لا أعرفه، كثيراً، عما اقترفه وزملاؤه من قتل وتعذيب وهتك عرض، وأخذ الأهل رهائن، وهدم للمنازل وإطلاق نار عشوائي؟

هل يوحي شكلي بالفضفضة إلى هذه الدرجة؟ قالت صديقتي المدافعة عن حقوق الانسان إنها جلست فوق كوم من الملفات السرية داخل مقر مباحث أمن الدولة، مع عشرة من المتظاهرين، وفي حماية الجيش، إلى حين حضور لجنة قضائية لاستلامها. فحصوا بعض هذه الملفات، وهالهم ما رأوا. جالتْ في المبنى مع بعض المتظاهرين ليروا أقبية التحقيق.

توقف أحد المتظاهرين، وهو إسلامي سلفي قوي البنية، أمام أحد الأقبية وأغشي

عليه. عندما أفاق قال هذا هو القبو الذي عذب فيه سنوات. الآخرون أخذوا صوراً لبعض أدوات التعذيب، وشرحوا لها كيفية تشغيل بعض آلاته. مروا على الأقبية لكنهم لم يتمكنوا من الوصول لكل أنحاء المبنى، واستدعى الأمر العثور على مهندسي المبنى، في اليوم التالي، للوصول إلى أقبية أخرى عثروا فيها على محتجزين، منهم رجل ظل سجيناً بلا محاكمة لمدة أربعة عشر عاماً.

قال لي آخرون دخلوا مقارات أخرى عن التسجيلات التي عثروا عليها، وتساءل بعضهم في استغراب: لِمَ يهتم أمن الدولة بتسجيل كل هذا الكم الهائل من المحادثات التليفونية التي تخص أناساً لا قيمة سياسية أو أمنية لهم، وكذلك تسجيل موضوعات خاصة. قال لي صديق أمني آخر إن «العاملين» في التصنّت، فقط، يبلغ عددهم الآلاف. أين ذهبوا يا ترى؟ وماذا يفعلون الآن، في هذه اللحظة؟

لا تفاجئني هذه القصص، بل أشك حين أسمعها أنها أقل من حجم «العمل» الذي كان يجري. الذي يفاجئني حقيقةً أن الذين أطلقوا النار على المتظاهرين ما زالوا أحراراً طلقاء. الضابط الذي أخرج مسدسه، ووضع طلقة في رأس المتظاهر الواقف أمامه، في وجهه، لم يحاسبه أحد. والقناصة الذين تمترسوا على الأسطح، وبدأوا في «اصطياد» المتظاهرين في الميدان ما زالون يسيرون في الشوارع بيننا.

أترى كانوا يختارون ضحاياهم وفقاً لمبدأ ما؟ مثلاً: هل كانوا يختارون واحداً لكل مساحة معينة أم من يبدو عليهم أنهم أكثر نشاطاً أم حسب السن أم النوع؟ هل كانوا ينظرون إلى ملامح وجوههم قبل أن يضغطوا على الزناد ضغطتهم الأخيرة؟ هل كانوا ينتظرون قليلاً ليرقبوا تعبيرات وجوههم:

ينتظرون أن يبتسم الهدف، أو يعبس، أو يتثاءب، قبل أن يسددوا طلقتهم في رأسه؟ وأين هم الآن؟ قد يكون هذا الجالس أمامي، هناك في آخر المقهى، أو ذلك الذي طلب القهوة قبلي وخرج بها. أين ذهبوا؟ هؤلاء الذين قتلوا بدم بارد ٨٦٦ من إخوانهم وأخواتهم؟ أين ذهب هؤلاء الذين صوبوا على أعين المتظاهرين فأفقدوا ١٢٠٠ إنسان عينه؟ أين ذهب هؤلاء الذين إئتمناهم على أماننا، أعطيناهم السلاح الذي اشتريناه بقوتنا، أعطيناهم الحق في القتل باسمنا، وضعنا أسرارانا بين أيديهم،

ومنحناهم الحماية فخانونا: أين ذهبوا؟

• • •

عربات الجيش القليلة المنتشرة بالمنطقة تعطي الناس إحساساً بالطمأنينة، لكن لا يبدو أن لديها قدرة حقيقية على فرض الأمن والنظام. أسير بينها وأنا أرقب الناس يأخذون الصور فوقها ومن حولها. بعض الجنود تحول إلى أيقونة سياحية، في حين يبدو آخرون تائهين. أتذكر أيام خدمتي في الجيش: كنت أحب إرسالي إلى المدينة، على الأقل يمكنني تناول طعام أفضل.

أخبار إنعدام الأمن لا تنقطع: البلطجية الذين هاجموا مدرسة أطفال، البلطجية الذين أوقفوا سيدة، وجردوها من ملابسها، وتركوها تعود إلى بيتها عارية، البلطجية الذين هاجموا الأقباط في شرق القاهرة، والبلطجية الذين قطعوا الطريق في القلعة، والبلطجية الذين دبروا حادث الكنيسة في حلوان.

دائماً البلطجية. لكن من الذي يدفع للبلطجية كي يقوموا بهذه الأعمال التي لا تدر عليهم ربحاً؟ وأين الشرطة التي قالت الحكومة إنها ستعود تدريجياً إلى الشوارع تحت إشراف الجيش؟ وأين الجيش نفسه؟ ألا توجد لديه قوات تنزل إلى الشوارع؟ هل كل ما لديه دبابات وعربات مدرعة؟

كان زملائي يتناقشون في هذه المسائل عند نقطة التفتيش فوق كوبري مايو، عندما رأينا رتلاً من سيارات الأمن المركزي آت ناحيتنا. في البداية فرحنا: لا بد وأن هذه هي عودة الشرطة! لكن فرحتنا تحولت إلى قلق مكتوم فوراً:

أليست هذه هي سيارات الأمن المركزي، التي كانت تقاتل المتظاهرين، وتدهسهم بالعشرات؟ وماذا تفعل هنا؟ أوقفنا الرتل، وتقدم زملائي نحو السيارة الأولى. أنزلوا قائدها، الضابط بملابسه الرسمية، وفحصوا أوراقه ووجهوا له أسئلة تهدف إلى إشعارهم بالسيطرة أكثر مما تهدف للتحقق من الأمر، فكيف سنعرف ما إذا كان عدواً أم حبيباً؟

قال إنهم مقدمة إعادة انتشار الشرطة، وشكرنا على مجهودنا الرائع في حماية

الوطن والأهل، وأخبرنا أنه يمكننا العودة إلى منازلنا الآن حيث سيتولون مهام الأمن من جديد. سأله البعض إن كانوا سيعودون لعاداتهم القديمة، فقال شيئاً عن الاحترام المتبادل والعهد الجديد. تناقش الزملاء ثم قرروا السماح للرتل بالمرور.

أشاروا لزميلي الواقف عند حاجز المنتصف فأفسح لهم طريقاً، ثم أشاروا لي كي أدعهم يمرون. وقفت أنظر إلى رتل السيارات الذي يملأ الأفق، ومصابيحه القوية في عينيّ، وذكريات هذه المصابيح وهذه السيارات تحضرني من ماض بعيد. عدو أم حبيب. أنظر إلى صف سيارات الشرطة الطويل وأتمنى لو استطعت تجميد هذه اللحظة للأبد: أنا، وحاجز الأشواك على الكوبري، وزملائي حاملو العصي، نمنع قوات الأمن من الدخول إلى الحي. نادوا عليَّ مرة أخرى أن أفتح لهم الطريق، فسحبت سلسلة الأشواك الصلبة من على الأرض. إلى أين أنتم ذاهبون يا قوات الشرطة المخيفة؟

III

المدرسة القومية المشتركة

لم تكن رسائل الصباح على «تويتر» مبشرة؛ «إحسبوها بالقلم والورقة، ٤٥ مليون ناخب على ١٢ ألف مركز اقتراع و١٢ ساعة. مستحيل أن يدلي كل الناس بأصواتهم، ولا حتى نصفهم. والتكتيك الذي قرر الإخوان المسلمون والسلفيون إتباعه، هو الذهاب جميعهم إلى لجان التصويت مبكراً، بحيث تُثني الطوابير الطويلة التي ستتكون بقية الناس عن التصويت». قلت لنفسي، وأنا أحتسي القهوة، وأتأمل في طبيعة الكون إن هؤلاء «التويتريين» لديهم هوس بالإسلاميين، ووسواس قهري بالمؤامرة.

سألتْ أسماء إن كنا سنذهب إلى مركز الاقتراع سوياً، أم نتناوب على الذهاب بحيث يبقى أحدنا لرعاية «سليم». قالت إنه ابن الثورة، وما دمنا لم نتمكن من الاحتفال بـ«سبوعه» في ميدان التحرير مثلما أردنا ـ حين تنحى الرئيس قبلها بأربعة أيام وانفض المتظاهرون ـ فأقل ما نستطيعه هو أن نأخذه للمشاركة في الاستفتاء.

رتبنا أموره، ومواعيد الرضاعة، والحفاضات، بحيث يمكننا الذهاب في الواحدة: سيعطينا ذلك ثلاث ساعات كاملة: «هل سيأخذ الأمر أكثر من ذلك؟» سألتني، فهززت كتفي. نظرت إليَّ متشككة ولاحظت: «لقد عدت لهز كتفك، خلي بالك».

لا نعرف مكان مركز التصويت، فلا أحد منا قد أدلى بصوته في أي انتخابات أو استفتاء من قبل. كنت قد نويت استخراج بطاقة انتخابية منذ حوالي العام، وانتهزت فرصة بلوغ مريم، ابنتي، الثامنة عشرة لاستخراجها كي أحثها على المشاركة بدورها. ذهبت إلى قسم الشرطة الذي اتبعه فطلبوا مني بتململ ملء بعض الاستمارات، ثم قالوا لي أن أمر عليهم لأخذ بطاقتي بعد ثلاثة شهور أو أربعة ـ «أو خمسة» ـ كما أضاف أحد العاملين في القسم. ولم يعطوني إيصالاً، قالوا لي أن أذهب للقسم وسأجدها في انتظاري. وطبعاً لم أفعل. مريم أخذت صديقة لها، وقضيتا عدة أيام في مطاردة البطاقة الانتخابية الوهمية، ولم تحصل كلتاهما عليها إلى يومنا هذا.

وجدنا مكان لجنة التصويت على موقع القوات المسلحة على «الفيسبوك»! المدرسة القومية المشتركة بشارع السيد البكري: أعرف هذه المدرسة، فهي بجانب بائع الخضار الذي تحول إلى منسق اللجنة الشعبية للحي، على بعد دقائق من المنزل. ذهبنا في الواحدة فوجدنا طابوراً طويلاً يمتد إلى مائتي متر خارج المدرسة: شباب وكبار ومسنون، ذكور وإناث، محجبات ومنقبات وعاديات، من سكان الحي الأغنياء والعمال والباعة وآخرين من كل فئات الشعب. جاءت سيدة تتسول فسألها أحد الواقفين إن كانت أدلت بصوتها فلما قالت له إنها لا تحمل هويتها لامها على التهاون في حقوقها. كان الطابور طويلاً ولا يتحرك، وبدأت أتساءل عما إذا كان ما قاله «التويتريون» صحيحاً. سليم يرقب الشارع بعينين كبيرتين مفتوحتين على آخرهما. لن نتمكن من الوقوف هنا كل هذا الوقت مع سليم. قررنا العودة إلى البيت ثم معاودة الكرة في الخامسة بعد الظهر.

• • •

عدت إلى الميدان للقاء «الشباب». أقابل في كل مرة أناسا جدد، وبعض الوجوه القليلة المتكررة. لا بأس، فهذه طبيعة الحركات الواسعة، وإن لم يكن هناك قيادة واحدة فذلك ربما أفضل، وعلينا أن نواصل النقاش مع أكبر عدد ممكن. تناقشنا حول المطلوب إنجازه الآن.

فقالوا: حل أمن الدولة، وإلغاء قانون الطوارئ، وغير ذلك.
قلت: ولِمَ لا تطالبون بنصيب في الحكم بدلاً من كل ذلك؟
فقالوا: الإفراج عن المعتقلين أولاً، وحل حكومة شفيق،
قلت: ولِمَ لا تركزون على تشكيل مجلس رئاسي مؤقت يكون ممثلاً لكل أطياف المجتمع بما فيه أنتم؟
فقالوا: محاكمة رموز النظام، ومحاربة الفساد.
قلت: وإن أصبحتم في الحكم تستطيعون تنفيذ كل مطالبكم،
فقالوا: إخراج حرس الجامعة من الجامعة، وكتابة دستور جديد.
قلت لِمَ المطالبة، لم تطالبون المجلس العسكري، وكأنه هو الرئيس الجديد؟ لم لا تصبحون أنتم جزءاً من الرئاسة، ويكون ذلك مطلبكم الرئيس؟
قالوا: الانتخابات الرئاسية أولاً، ثم البرلمانية، والدولة المدنية.
قلت وقالوا، وتناقشنا مطولاً ثم تفرقنا.

في المساء، كل مساء، أشاهد جوانب من هذه المناقشة. صرت أحفظ الجمل من فرط ما تكررت. أثناء اليوم، كل يوم، أستمع إلى مزيد منها، وأشارك في بعض هذه المناظرات. وفي الأثناء، تحرك المجلس العسكري فأقال الحكومة، وعيّن الحكومة الجديدة، واستغرق ذلك حوالي أسبوعين من المناقشات.

ثم بدأ الحديث عن تعديل الدستور مقابل إعادة كتابته، واستغرق ذلك أسبوعين آخرين من النقاش. ثم المحاسبة والمحاكمة ومن الذي شملته، ومن الذي أعفته، واستغرق ذلك الكثير من الأيام. ثم الغاء أمن الدولة، واستبدالها بأمن الوطن،

والوثائق المفرومة والمحفوظة والمقطعة شرائح، واستغرق ذلك أياماً. ومع كل يوم يمر، وبينما انشغل الجميع في هذه «الأحداث» أخذت مصر الأخرى، تلك التي وُلدت في ميدان التحرير، تتباعد. وبدأت أسأل نفسي إن لم يكن الوقت قد حان للعودة، وإكمال نص الرواية الجديدة.

• • •

كان قد مر علي نصف ساعة، فقط، في الطابور، عندما بدأ النقاش بين الرجلين الواقفين أمامي حول تصويتهما الوشيك. سأل الأول الثاني كيف سيصّوت فقال إنه سيقول نعم للتعديلات الدستورية، وسأل بدوره الأول فقال إنه سيصوت بلا. أسماء حملت سليم وذهبت في طابور السيدات. سألته لِمَ فقال إنه سيصوت بنعم لأنه يريد الحفاظ على المادة الثانية من الدستور، التي تنص على أن دين الدولة هو الإسلام، ثم انخرطا في نقاش حول جدوى ذلك الأمر برمته.

منذ أيام، وهذا الحوار دائر حول السلفيين الذين يدفعون أنصارهم لتأييد التعديلات مخافة تعديل المادة الثانية، وحول الإخوان المسلمين الذين حث بعضهم الناس على التصويت بنعم كواجب ديني، وأئمة المساجد الذين دعوا الناس للتصويت بنعم، وكوادر الحزب الوطني الذين دعوا الناس للتصويت بنعم، والذين يريدون «الاستقرار»، وسأل الرجل الواقف أمامي عن علاقة التعديلات المقترحة بكل هذا الحديث، وهي تعديلات لا تمس سوى إجراءات الترشح والانتخاب، ودارت المناقشة المعهودة.

عادت أسماء وقالت إنهم تركوها تصوّت قبل الأخريات بسبب سليم، وسألناها أنا ومن حولي إن كانت مستعدة لتأجيره لنا فابتسمت ومضت. جاءت مذيعة الفضائية وسألتني دون بقية الواقفين عن رأيي في غياب الشرطة عن مراكز الاقتراع، فقلت إني أود لو اختفت الشرطة من المدينة بأكملها، وأني أشعر بالأمان أكثر منذ اختفائها، وحياني المصور مهللاً.

وقفنا جميعاً في الطابور، نحن المصريون المشهورون بالفوضى والتحاذق، بلا شرطة ولا آمرين، ولم يحاول أحد إفساد النظام، وحين اقتربت الساعة من السابعة،

موعد إغلاق اللجنة، تفاوضنا جماعياً مع رئيس اللجنة على إدخالنا كلنا في فناء المدرسة، لننتظر في الداخل بحيث يغلق باب اللجنة في الموعد، دون ترك أحد منا دون تصويت.

وقد كان، دخلنا في صفوف لولبية كتلك التي تصطف عند الفحص الأمني بالمطارات، ولكن دون حواجز أو علامات. نظمنا أنفسنا بأنفسنا، ووقفنا جميعاً في انتظار الدور. ضحك الرجل الواقف أمامي لشخص يكلمه في التليفون، وهو يقول إن الديمقراطية «طلعت وحشه» وإنه يريد العودة للاستبداد بدل كل هذا الطابور، ورد آخر من وسط الطابور: «شفتم الريس كان شايل عنكم كل هذا الهم»، وضحكنا كلنا لكن أحداً منا لم يغادر الطابور.

سأل أحدهم كيف ستقوم اللجنة بفرز كل هذه الأصوات الليلة، خاصة وأنهم يعملون يدوياً، يسجلون الأسماء في دفاتر دون كمبيوترات. سأل آخر عن وجود مراقبين أثناء عملية الفرز، ولم يجبه أحد. هناك مراقبون كثيرون الآن، لكننا لا نعلم كيف سيتم الفرز. الساعة تقترب من التاسعة مساء، وأنا من صندوق الاقتراع.

سلّمت الهوية واستلمت الاستمارة. قالت لي المراقبة إنها غير مختومة فسألت لِمَ فقالوا إن الوقت لم يسعفهم. سألت كيف سيعتمدونها إذاً، فقالت أن أطلب من القاضي التوقيع عليها. فعلت. الجميع متعاون، ويريد إنجاح هذه العملية، حتى لو كانت الشوائب كثيرة. الساعة الآن التاسعة، وقد بلغ بي التعب درجة أني بدأت أنسى كيف كنت أنوي التصويت.

• • •

أشعر بالبرد في هذا الاستديو المضحك. سألتُ المذيعة كيف تقضي اليوم كله في هذا البرد، فقالت شيئاً لم أتبينه. عدّلت ربطة عنقي مرة أخرى، وأنا أنتظر بدء التسجيل. الحلقة على الهواء واستغربت من ذلك. حين كان التليفزيون الحكومي يدعوني للظهور في إحدى قنواته، كان يتم إلغاء الموعد مرة من كل مرتين، وحين يتم الموعد كان الحديث يُسجّل دائماً. أول مرة على الهواء في تليفزيون الحكومة: هل هذه هي انجازات الثورة؟

سألتُ المذيعة عن الوضع في التليفزيون، فقالت إنه مضطرب، وسألتني إن كنت قد لاحظت المئات من المظالم والمكائد والشكاوى والدعاوى المكتوبة على الأوراق الملصقة في بهو المبنى الكبير. قالت إن حال المبنى من حال البهو، ولا أحد يعرف على وجه الدقة ما يجري، لكن هناك حرية أكبر، ربما فقط نتيجة للفوضى.

بدأنا البرنامج وتحدثنا عن التعديلات الدستورية التي يستفتي المجلس العسكري عليها الشعب. قلت إني سأصوت بلا، فاضطربت المذيعة قليلاً، لكنها واصلت بشجاعة. قلت إن التصويت بنعم سيعيد الدستور القديم للحياة، وهو دستور استبدادي لا يجوز إجراء انتخابات أو كتابة دستور جديد في ظله، والمطلوب إعلان دستوري قصير ينظم الحياة، حتى كتابة دستور جديد.

دخل على الخط أحد أعضاء اللجنة التي صاغت التعديلات وقال إن التعديلات لا تعني إعادة الدستور القديم للحياة. سألته: هي تعديلات على ماذا إذاً؟ فقال هي تعديلات مستقلة بذاتها. سألته ساخراً وإن كانت أرقام هذه المواد هي ٧٦ و٧٧، فأين الـ ٧٥ الأولى، فقال شيئاً غير واضح، وتدخلت المذيعة لفض الاشتباك. خرجت وأنا استغرب كيف يمكن لفقيه دستوري التدليس على الشعب لهذه الدرجة.

لكن اتضح أن الحق معه، بشكل من الأشكال. فالمجلس العسكري الغامض كان قد قرر مع نفسه الاستجابة لطلب حملة «لا» والعدول عن إعادة الدستور القديم إلى العمل بعد تعديله، وإصدار إعلان دستوري بدلاً من ذلك، لكنه في ما يبدو خجل من التراجع، وإلغاء الاستفتاء أو تأجيله. ومن ثم أصبحنا في هذا الوضع الغريب الذي نستفتي فيه على عدد محدود من المواد في حين يكتبون هم أكثر من خمسين مادة دون استفتاء، أو لعل هذا ما أرادوه.

سألت صديقي السياسي القديم الذي فقد مستقبله مع سقوط النظام عن تفسير ذلك، وأشياء أخرى يقوم بها المجلس الغامض، فابتسم وهز كتفيه ومضى. هز الكتف هذا يقلقني.

• • •

بدأت أتجاوز مرحلة القلق إلى مرحلة عدم الفهم. أنظر إلى عبود الزمر على شاشة التليفزيون الحكومي، وهو يستفيض في الحديث عن آرائه ومشروعاته للمستقبل، ولا أصدق نفسي. لم يقل الرجل كلمة واحدة تنم عن الندم أو التراجع عن اغتيال الرئيس الأسبق. لستُ ضد الإفراج عنه، على العكس، كنت أجد استمرار سجنه بعد نهاية مدة عقوبته وصمة. لكن هناك فارق بين الإفراج عن شخص وبين هذا. ثم سُئل عن الاغتيال فبدأ يبرره ويدافع عنه. لا، هذا كثير.

• • •

كنت أسير في شارع ٢٦ يوليو عائداً إلى البيت حين سمعت نتيجة الاستفتاء، وحلت علي كآبة كانت قد غادرتني منذ أسابيع. عدت إلى البيت وسألتني أسماء عمّا إذا كنت قد سمعت النتيجة فأومأت وصمتتْ وهي تهز رأسها في أسف. كنا ضيوفاً على العشاء لدى أصدقاء لنا في الحي، فلم نستكمل الحديث، وانشغلنا بإجراءات تسليم سليم لمن سيعتني به، والاستعداد للذهاب.

على العشاء وجدنا سحابة الكآبة التي قابلتنا مُبكراً. قصت الصديقة الصحفية حكايات الاستفتاء التي شهدتها في القرى والنجوع، وحكى آخر عن دهاليز السياسة والحكومة الانتقالية، وثالث عن الصراعات بين الأحزاب والشخصيات السياسية الناشئة، ورابع عن الشباب والمهاترات التي تبدد مجموعاتهم، وحمدت الله أن هناك أربعة أصدقاء فقط على العشاء، فمن يدري ماذا كان الخامس والسادس سيقولان.

شغّلت الصديقة الصحفية التليفزيون لنشاهد المؤتمر الصحفي الذي يعلن فيه المجلس العسكري «إعلانه الدستوري» وجلسنا نسمع، مادة بعد مادة، حتى قرأ المادة ٥٦: يتولى المجلس الأعلى للقوات المسلحة إدارة شؤون البلاد، وله في سبيل ذلك مباشرة السلطات الآتية». مرري السَلطة من فضلك. «١ التشريع، ٢ إقرار السياسة العامة للدولة والموازنة العامة ومراقبة تنفيذها».

هل يريد أحد مزيداً من الأرز؟

« ٣ تعيين الأعضاء المعينين في مجلس الشعب، ٤ دعوة مجلسي الشعب والشورى لانعقاد دورته العادية وفضها والدعوة لاجتماع غير عادى وفضه » ترى كم مادة هذا الإعلان؟ « ٥ حق إصدار القوانين أو الاعتراض عليها، ٦ تمثيل الدولة في الداخل والخارج، وإبرام المعاهدات والاتفاقيات الدولية ، وتعتبر جزءاً من النظام القانوني في الدولة » . ما الفارق بين هذا وبين كتابة دستور جديد؟ « ٧ تعيين رئيس مجلس الوزراء ونوابه والوزراء ونوابهم وإعفاؤهم من مناصبهم، ٨ تعيين الموظفين المدنيين والعسكريين والممثلين السياسيين وعزلهم على الوجه المبيّن فى القانون، واعتماد ممثلي الدول الأجنبية السياسيين »

الله! أمال الاستفتاء كان في إيه؟

« ٩ العفو عن العقوبة أو تخفيفها أما العفو الشامل فلا يكون إلا بقانون ١٠ السلطات والاختصاصات الأخرى المقررة لرئيس الجمهورية بمقتضى القوانين واللوائح، وللمجلس أن يفوّض رئيسه أو أحد أعضائه في أي من اختصاصاته » .

نظرتُ لأسماء فأومأت لي بالإيجاب، فاستأذنت من الأصدقاء متعللاً بضرورة العودة مبكراً للاعتناء بسليم، وخرجنا. قلت لأسماء إني سأعود فوراً للعمل في الرواية الجديدة. صمتتْ، وصمت. سرنا قليلاً في شوارع الحي، طلبت أن آخذها لمكان نقطة التفتيش التي كنت فيها. ذهبنا، لم يكن هناك سوى سيل السيارات الذي يتزاحم للمرور من مَنزَل الكوبري الضيق.

سألتني إن كنت أعرف عناوين الذين كانوا معي عند النقطة فهززت رأسي نافياً.

سألتني إن كنت قد رأيت أحداً منهم منذ عودة الشرطة فقلت لا. ابتسمت وقالت « ربما يجب أن تبحث عنهم، يمكنك تأجيل الرواية لعدة أسابيع أخرى، فلن يضير ذلك الرواية في شيء » .

نظرت لها وهززت كتفي، ولم أجب.